مرحلة العقاب

كانت نتيجة جحود عبد الناصر الدور الأمريكي الحاسم في إجلاء العدوان الثلاثي، وإسناد الفضل للسوفييت حلفائه الجدد وإسراع السوفييت بتقديم المساعدات الضرورية لمصر في الوقت الذي تقاعست أمريكا عن القيام بهذا الدور أن شهدت هذه المرحلة تقارباً كبيراً بين عبد الناصر والسوفييت ، وتباعداً بين أمريكا وعبد الناصر وإن كانت شعرة معاوية مازالت موجودة فالمعونة الأمريكية مازالت تتدفق على مصر ، والعلاقات الدبلوماسية ما زالت قائمة ، والدبلوماسيون الأمريكان ما زالت القاهرة تحتضنهم ولقاءاتهم بعبد الناصر لم تنقطع .

سياسة ملء الفراغ

في تلك المرحلة قررت أمريكا عقاب عبد الناصر على انحيازه للسوفيت كما أقدمت على اتخاذ بعض الإجراءات لتعويض الخسارة التي منيت بها في المنطقة وتمثلت تلك الإجراءات في سياسة لدالاس لملء الفراغ ، ومبدأ أيزنهاور.

فبعد فشل العدوان الثلاثي وجلاء المعتدين سعى دالاس إلى طرح الولايات المتحدة لملء فراغ الشرق الأوسط الذي خلفته بريطانيا وفرنسا . ورفض عبد الناصر هذه السياسة الخارجية ورأى أن القومية العربية [1] هي المرشح الطبيعي لملء هذا الفراغ .

يقول عبد الناصر : " أرفض رفضاً باتاً مبدأ " دالاس" القائل بأن هناك فراغاً في الشرق الأوسط يجب ملئه بواسطة دولة قوية أجنبية، أولاً : لا يوجد مثل هذا الفراغ،

([1]) راجع كتابنا " إنجازات عبد الناصر الكبرى من منظور سياسي " دار زهور المعرفة والبركة .

ولو فرضنا أن الفراغ قائم لكان من المحتم أن تملأه القومية العربية، التي ليست موجهة ضد أي فريق ممن يتجنب التدخل في شئوننا الداخلية ويحترم استقلالنا. إننا لن نقبل المشروع الغربي الذي يقول إن هناك فراغاً في الشرقين الأدنى والأوسط، وهذا المشروع يقتضى ملء الفراغ بواسطة الدول الغربية، إننا سنملأ هذا الفراغ، بل لقد ملأناه فعلاً، إن الفراغ القائم والأهم هو فراغ سيكولوجى لا يمكن ملؤه إلا بالتفاهم المتبادل، وحسن النية المتبادلة، وبذل جهود منسقة مشتركة لتوطيد دعائم السلام " [1]

مبدأ أيزنهاور

وفي الخامس من يناير ١٩٥٧ قدَّم أيزنهاور اقتراحاً إلى الكونجرس الذي وافق عليه في الجلسة المشتركة بين مجلس الشيوخ ومجلس النواب حالاً ، وأصبح نافذ المفعول ابتداء من شهر مارس من نفس العام . وقد خوَّل الكونجرس رئيس الجمهورية حق إرسال القوات المسلحة الأمريكية للدفاع عن أي من الحكومات الصديقة في الشرق الأوسط التي تواجه تهديداً مسلحاً من قبل أية دولة أخرى تدور في فلك الشيوعية العالمية . وفي حال عدم وجود مثل هذا التهديد السافر بالسلاح فللرئيس الحق في تقديم المساعدات الاقتصادية والعسكرية التي تحتاج إليها تلك الحكومات بغية بناء جهاز دفاعها الذاتي . وقد عُرف هذا " بمبدأ أيزنهاور " .

لقد كان " مبدأ أيزنهاور " مصدر مزيد من الإحراج والتورط لأعداء عبد ناصر (نوري السعيد / العراق ، الملك حسين / الأردن ، الرئيس شمعون / لبنان) دون أن يقدم لهم المساعدة الفعلية التي أضحوا في أمسِّ الحاجة إليها للصمود في وجه عبد ناصر وحملاته المتلاحقة القاسية ضدهم . [2]

أما عبد الناصر فقد اعتبر أن مشروع أيزنهاور يهدف لعزل مصر، وتحقيق أهداف العدوان الثلاثي بصورة سلمية .

([1]) من تصريح الرئيس جمال عبد الناصر إلى "كارل فون فيجاند" عميد المراسلين الدبلوماسيين الأمريكيين ١٩٥٧/١/١٦. راجع خطب عبد الناصر على موقعه الرسمي على الإنترنت .

([2]) مايلز كوبلاند " لعبة الأمم " تعريب مروان خير مرجع سابق ص ٢٤٤.

فقد قال لمندوب مجلة "لوك" الأمريكية : " لقد جمَّدتم عملاتنا الأجنبية ورفضتم أن تبيعونا القمح والأدوية عندما كنا في حاجة إليهما، كما حاولتم أن تضغطوا علينا اقتصادياً حتى نغير من سياستنا بشأن قناة السويس، والفرق بينكم وبين حلفائكم هو أنهم حاولوا قتلنا بالقنابل، بينما تحاولون أنتم قتلنا بوسائل سلمية؛ بالضغط الاقتصادي، وإماتتنا جوعاً، ولقد أخفقت جهودكم وخططكم ." [1]

سياسة أمريكا لعزل مصر

وصرَّح عبد الناصر كثيراً برفضه القاطع لهذا المبدأ : " مصر لم تقبل هذا المبدأ – مبدأ "أيزنهاور" – وصمَّمت على أن سياسية تقيد بها الدول العربية، وان هذا المبدأ هو تكملة لحلف بغداد خصوصاً بعد أن انضمت الولايات المتحدة انضماماً سافراً إلى حلف بغداد .

بدأت حملة الكراهية وحرب الأعصاب، وبدأت الخطة الأمريكية اللي أعلنوا عنها؛ وهى اللي تمثل الغزو من الداخل.. أو بمعنى أصح تحقيق الأهداف من الداخل. خطة جديدة بدأت تأخذ سبيلها في العالم العربي وفى البلاد العربية، وبدأت المقدمات؛ بدأت الصحف الأمريكية تتكلم عن عزل مصر عن العالم العربي، وعن فصل مصر عن العالم العربي، وقالوا بصراحة: إن العدو أو الخطر الداهم في منطقة الشرق الأوسط مش الشيوعية الدولية – زى ما بيقولوا رسميّاً – ولكنها القومية العربية. وقالوا بصراحة – الصحفيين الأمريكيين – إن هدفهم هو القضاء على هذه القومية العربية؛ اللي هي بتنبت بذورها من المحيط الأطلسي إلى الخليج الفارسي، واللي تمثل خطر على مناطق النفوذ وعلى مصالح الدول الغربية في منطقة الشرق الأوسط. واتضحت المعركة وأصبحت المعركة سافرة، وان الشيوعية الدولية اللي بيتكلموا عليها لم تكن إلا

([1]) من حوار صحفي للرئيس جمال عبد الناصر مع مندوب مجلة "لوك" الأمريكية ١٩٥٧/٦/١٤. راجع خطب عبد الناصر على موقعه الرسمي على الإنترنت .

العذر، والشيوعية الدولية لم تكن إلا السبب اللي يؤخذ للتدخل، وإلى تنفيذ الخطط اللي عملت من أجل عزل مصر عن باقي الدول العربية، وللعمل على إثارة القلاقل وإثارة المتاعب في الدول العربية . " [1]

العداء الإعلامي المتبادل

بدأت العلاقات المصرية / الأمريكية تنتقل من سيء لأسوأ ، وبدأ عبد الناصر يطلق لسانه وصحفه وإذاعاته للنيل من الولايات المتحدة وانجلترا ، وحلفائهما في الشرق ، وفي مقابل ذلك كان خطابه للسوفيت ودوداً وحميماً .

ففي كلمته في وفد المغتربين العرب في الولايات المتحدة الأمريكية بقصر أنطونيادس بالإسكندرية قال عبد الناصر : " قد اتهمونا في الولايات المتحدة الأمريكية بأننا نتكلم عن عدم الانحياز، ولكننا ننحاز للشيوعية ونعمل على تدعيم الشيوعية في وطننا، وكان هناك بعض الصحفيين الأمريكيين يسألون: لماذا نهاجم الولايات المتحدة الأمريكية ولا نهاجم الاتحاد السوفيتي ؟ وكان ردِّى عليهم أننا لم نر من الاتحاد السوفيتي إلا المعونة، أما هجومنا على الولايات المتحدة فكان سببه أننا جابهنا ضغوطاً اقتصادية وسياسية من الولايات المتحدة، وكان عملنا هو عمل الدفاع ولم نبدأ بأي حال من الأحوال بالهجوم، وليس من مصلحتنا بأن نبدأ باتخاذ موقف عدائي من الولايات المتحدة أو من أي دولة أخرى، ولكن سياستنا مبنية على المحافظة على استقلالنا، وحقنا في تقرير سياستنا، ثم المحافظة على كرامتنا . " [2]

وفي ردِّ عبد الناصر على سؤال مندوب شركة "كولومبيا" للإذاعة : إن الصحف المصرية والإذاعة المصرية تصور الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها العدو رقم واحد لمصر، فلماذا ؟

([1]) من خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في المؤتمر الشعبي بميدان المنشية بالإسكندرية بمناسبة الاحتفال بعيد الثورة ١٩٥٧/٧/٢٦ . راجع خطب عبد الناصر على موقعه الرسمي على الإنترنت .

([2]) كلمة الرئيس جمال عبد الناصر في وفد المغتربين العرب في الولايات المتحدة الأمريكية بقصر أنطونيادس بالإسكندرية ١٩٥٩/٨/١٠. راجع خطب عبد الناصر على موقعه الرسمي على الإنترنت .

أجاب عبد الناصر : أظن أن الأمر ليس على هذا النحو بالضبط، والواقع أن صحفنا وإذاعتنا في تعرضها للولايات المتحدة إنما كانت تستند على حقائق معينة بالذات؛ منها مثلاً – كما قلت لك – تجميدكم لأرصدتنا في أمريكا، ومنها امتناعكم عن بيع القمح لنا؛ بينما الفائض لديكم منه كثير لا تعرفون كيف تتخلصون منه، ومنها امتناعكم عن بيع الأدوية حين طلبنا منكم ذلك بإلحاح. وكما ترى فإن هذه الأعمال من ناحيتكم أعمال عدائية، فكيف كان يجب أن يكون تعرض الصحافة المصرية والإذاعة المصرية لها ؟ أظن أن الشيء المنطقي هو أن التعليق على العمل العدائي لا يمكن إلا أن يكون صدًى مماثلاً له .

ثم أنت دون جدال تقرأ ما تكتبه صحفكم عن بلادنا، وأنت لا تستطيع أن تصف لهجة حديثكم عنا – مهما أوتيت من لباقة – بأنها لهجة ودية، فكيف تطلب أن يكون رد الفعل في صحفنا وإذاعتنا وديّاً ؟ [1]

وظل هذا العداء المتبادل سائداً بسبب رغبة أمريكا في عقاب عبد الناصر لانحيازه للسوفييت، ورغبة عبد الناصر في معارضة سياسة أمريكا في المنطقة بطرح القومية العربية بديلاً عنها .

يقول عبد الناصر في رده على سؤال مدير مكتب وكالة "يونايتد بريس" في الشرق الأوسط : ما هي الأمور التي أنت على استعداد للقيام بها لتحسين علاقاتك مع الولايات المتحدة ؟ وما الذي تعتقد أن على الولايات المتحدة أن تفعله كذلك؟

أجاب عبد الناصر : نحن على استعداد من جانبنا لعمل أي شيء ماعدا التخلي عن استقلالنا وسيادتنا، لاسيما فيما يختص بالعلاقات التجارية وجميع المسائل الأخرى، ولكن من ناحية أمريكا فإننا نجدها تجمد أموالنا، وتوقف معاملاتها التجارية

([1]) من حديث عبد الناصر إلى "فرانك كيزنز" مندوب شركة "كولومبيا" للإذاعة ١٩٥٨/٤/٦. راجع خطب عبد الناصر على موقعه الرسمي على الإنترنت .

مع مصر، وتحاول فرض ضغط على مصر، فإذا تغيرت هذه السياسة فإني أعتقد أنه سيكون هناك علاقات أفضل ." [1]

عبد الناصر وأيزنهاور وأزمة لبنان ١٩٥٨

لم يكتف عبد الناصر بعدم تأييد سياسة إيزنهاور في الشرق ، والسعي الحثيث لإفشال حلف بغداد بل عمد إلى تنظيم انقلابات ضد حلفاء أمريكا من الحكام العرب (نوري السعيد / العراق – والملك حسين / الأردن – كميل شمعون / لبنان) ولعل في أزمة لبنان عام ١٩٥٨ خير شاهد على ذلك.

بدأ توتر لبنان / كميل شمعون مع مصر/ عبد الناصر في عام ١٩٥٦ عندما رفض الرئيس اللبناني كميل شمعون، المسيحي الموالي للغرب، قطع العلاقات الدبلوماسية مع الدول الغربية التي هاجمت مصر أيام العدوان الثلاثي، مما أثار حنق عبد الناصر على نظام كميل شمعون ، وزادت التوترات أكثر عندما أعلن كميل شمعون تقربه من حلف بغداد ذلك الحلف الذي يعتبره عبد الناصر تهديداً للقومية العربية الذي يتزعمها . وعند قيام الاتحاد بين مصر وسوريا (١٩٥٨) دعَّم رئيس الوزراء اللبناني السني رشيد كرامي عبدَ الناصر في الوحدة كما دعَّمه في العدوان الثلاثي وطالب رشيد كرامي اللبنانيين المسلمين الانضمام للوحدة العربية ، بينما طالب كميل شمعون المسيحيين الاستمرار التحالف مع الدول الغربية. وقام عبد الناصر بتسليح المسلمين اللبنانيين عن طريق سوريا ودفعهم إلى التمرد على كميل شمعون مما دفع كميل شمعون لتقديم شكوى لمجلس الأمن .

في ١٤ يوليو ١٩٥٨ تم اغتيال نوري السعيد الذي يوصف بأنه رجل الغرب في العالم العربي وبموت نوري السعيد مات حلف بغداد وإن شيعت جنازته في أغسطس

([1]) من حديث الرئيس جمال عبد الناصر إلى "ويلبر لاندرى" مدير مكتب وكالة "يونايتد برس" فى الشرق الأوسط ١٩٥٧/٧/٩ . راجع خطب عبد الناصر على موقعه الرسمي على الإنترنت .

١٩٥٩ حيث انسحب العراق / عبد الكريم قاسم رسمياً من حلف بغداد، ، فحصل عدم استقرار داخلي في لبنان، مما دعا كميل شمعون إلى طلب المساعدة العسكرية من أمريكا. استجاب إيزنهاور لطلب شمعون فيما سمي بعملية الخفاش الأزرق في ١٥ يوليو ١٩٥٨.

وكان هذا أول تطبيق لمبدأ إيزنهاور الذي أعطى الحق لأمريكا بالتدخل في الدول المهددة بالشيوعية .الهدف من العملية كان دعم حكومة كميل شمعون الموالية للغرب المهددة من سوريا ومصر. الخطة كانت احتلال وتأمين مطار بيروت الدولي، وميناء بيروت ومداخل المدينة. العملية شارك فيها ١٤٠٠٠ جندي من الجيش والمارينز. نجح وجود القوات الأميركية في قمع المعارضة وسحبت أمريكا قواتها في ٢٥ أكتوبر ١٩٥٨ بعث الرئيس إيزنهاور الدبلوماسي روبرت د. ميرفي للبنان ليمثله. ميرفي لعب دوراً مهما في إقناع الرئيس كميل شمعون في الاستقالة وانتخاب قائد الجيش المسيحي المعتدل فؤاد شهاب بدلاً منه بالتوافق مع عبد الناصر .

ووقر في ذهن أيزنهاور أن عبد الناصر يحاول أن يستفيد من اللعب على الانقسامات اللبنانية سواء لمصلحة السوفيت أو لإشباع طموحاته الشخصية الرامية إلى إخضاع النظم العربية لإرادته وانضوائها تحت حكمه مستخدماً شعار القومية العربية للوصول إلى أهدافه . [1]

إلى هذا الحد وصل الصراع بين مصر / عبد الناصر ، وأمريكا / أيزنهاور ، ولكن رغم حدة الصراع إلا أن شعرة معاوية لم تنقطع فلم تقطع أمريكا معونتها لمصر ، ولا هدد عبد الناصر أمن إسرائيل ولا المصالح الاقتصادية الأمريكية في مصر ، وما لبثت العلاقة أن تحسنت نتيجة خلاف وقع بين عبد الناصر وخروشوف .

***

(١) انظر الأزمة اللبنانية عام ١٩٥٨ د. عباس رشدي " إدارة الأزمات في عالم متغير " ص ١٦٣- ١٦٥.